مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية
Eissn :2602-5264 Issn : 2353-0499
المجلد 12 / العـدد: 03(2024)، ص: 582-570

المنزع العقلاني وملامحه في التراث اللغوي العربي، مفاهيم وإشكالات.

The rational style tend and its features in the Arabic linguistic heritage, Notions and problems

غنية طيبي[1]،

[1] جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2 (الجزائر)، g.taibi@univ-setif2.dz

تاريخ الاستلام: 2024/07/28 تاريخ القبول: 2024/09/09 تاريخ النشر: 2024/10/01

ملخص:

تناولنا في هذه الورقة البحثية موضوع التفكير العقلاني وأهميته في تأسيس العلوم ومنها علم اللسان، وتحديدا دوره في إيجاد نظرية لغوية عربية قديمة، وهو ما تساءلنا عن عوامله وحيثياته من خلال مقاربة إشكالية مدى حضور المنزع العقلاني في التفكير اللغوي العربي قديما.

وقد حاولنا عرض بعض ملامح وآراء تنمّ عن حضور هذا المنزع، خاصة عند" ابن خلدون" وما تحدّث فيه من موضوع اللغة (الملكة اللسانية) وطبيعتها وعلومها.

ومن أهمّ ما توصلنا إليه هو: تأكيد حضور هذا المنزع في التراث اللغوي لنتخذ من هذا الأخير مسوّغا منهجيا لتقديم دعوة إلى الباحثين المحدثين وحثّهم على التفكير العقلاني العلمي من أجل الدفع بوتيرة البحث العلمي وبسيرورته إلى النهوض والتطوّر، وهو الأمر المأمول والمطلوب في الوقت الراهن.

كلمات مفتاحية: التفكير العلمي، المنزع العقلاني، التراث، الملكة اللسانية.

Abstract:

The present paper deals with, we discussed the topic of rational thinking and its crucial role in establishing sciences, including linguistics, and finding an ancient Arabic linguistic theory, We have tried to discuss its factors and merits by approaching the extent of the rational style tend presence in ancient Arabic linguistic thinking.

We have tried to present some features proving the existence of this trend, especially in Ibn Khaldoun when he studied the subject of language (linguistics competence) , its nature and sciences.

One of the most important things we have achieved is to confirm the presence of this trend in the linguistic heritage, so that we can take the motive as a methodological precedent to present an invitation to modern researchers and urge them to think rationally and scientifically in order to push the pace and process of scientific research to advancement and development, which is what is hoped for and required at the present time.

Keywords: scientific thinking, rational style tend, heritage, linguistics competence.

*المؤلف المرسل: غنية طيبي

1. مقدمة

يرث الإنسان في حياته –بإذعان وبشكل قسري-حياة تبدو كاملة من حيث الأفكار والأحداث والعادات والتقاليد والقيم والعلوم والمتون والسنن...إلخ، وهذا كلّه وجود بعينه، بل وجوده هو (الإنسان)؛ إذ لا يكاد ينفلت منه ليجد نفسه إزاء عالم معقّد ومركب يدفعه باستمرار إلى محاورته ومساءلته، باحثا عن ماهيته وسلطته ومقاصده وأسسه وسماته وكذلك ناقبا عن تاريخه وحيثيات إنوجاده وتكوّنه ومقوّمات استمراريته؟

هذه الأسئلة وأخرى تفتح أمام العقل الرّاهن آفاقا جديدة في الحياة الفكرية، حيث يفكر ويتأمّل ويتعقّل ويدرك تلك الخفايا والأسس التي توحي في مجملها إلى وجود قوة عقلية فكرية متعالية تمكّنت بفعل البحث والتفكير وفي ظل وجود وتوفر ظروف معينة ومن أجل غايات متنوعة من عقلنة الوجود بكلّ مظاهره وظواهره وعناصره وعلاقاته المختلفة، فصنعت رؤى وتكوّنت تصوّرات وتشكّلت مواقف وتولّدت مفاهيم ومعارف ومنهجيات، وهذا كله أدى فيما بعد إلى تأسيس نظريات واتجاهات معرفية كانت ولا تزال- بعدّها مقاربات إبستيمولوجية- مصدرا معرفيا ومنطلقا منهجيا لمساءلات حديثة تسعى إلى فهم ما هو موجود من جهة، أو تسعى إلى تحيين المساءلة العقلية حول طبيعة المنجز السائد من حيث قيمته العلمية ومكانته بين المنجزات والموروثات الفكرية، وهنا تتجه تلك المساءلة إلى مناحي عديدة تحملها مفارقة النقل والعقل للموروث، فهل يُنقل ويُبعث ويطبق كما هو بعدِّه منجزا فكريا مكتملا ؟ أو يؤخذ بحذر وتريّث وتشكيك ومساءلة ابستيمية بعيون علمية مغايرة ومتحررة ومستقلة؟ وبين هذا وذاك تولّدت مفارقة منهجية معقّدة في حياتنا الفكرية الرّاهنة وهي الناتجة عن الصراع الذي لا يكاد ينتهي حول/ بين الرغبة في الأخذ والنقل للتراث اللغوي الثقيل والخطير، الميت والحي، البعيد القريب، الخاص والعام، والذي أنتجه ذلك الآخر المختلف عنّا في تفكريه وظروفه ومقاصده، وبين الميل الطبيعي الفطري الموجود لدى كلّ إنسان عاقل وحرّ، وهو مبدأ السؤال والتشكيك والفضول وحب المعرفة والاكتشاف، وهو المنحى العقلاني الذي لا ينفلت من التأمّل والتبصر والتحرر والإنتاج اعتمادا على الحيثيات الرّاهنة من ظواهر وأدوات ومعطيات.

وضمن هذا السياق ظهر جدل عميق بين النقل والعقل بين الباحثين المحدثين الذي وجدوا أنفسهم مضطرين إلى حمل هذه الجدلية (جدلية النقل والعقل) ونقلها إلى ذلك السياق التاريخي من أجل فكّ شفرات الغموض المنهجي الذي يكتنف النظرية اللغوية العربية القديمة (التراثية)، ولعلّ من أقوى الدوافع في مقصدهم هذا هو محاولة اثبات علمية هذا التراث في منهجه أو في مفاهيمه وتصوّراته، وهذا في نظرهم –خاصة أولئك الذين يتعصبون للمنزع التراثي في الحياة فكرا وحضارة وممارسة واتجاها- مسوغ للأخذ به ونقله وتوظيفه، فهو علم لغويّ تراثيّ تأسّس –حسب فرضيتهم- على أسس علمية عقلية سمحت له بتأسيس ذاته وإثبات وجوده المستقلّ وهويته وثبت نظرياته وتحرير نفسه من الحدّ المعرفي السائد والمنقول آنذاك.

ومن خلال ورقتنا البحثية هذه نحاول أن نقدّم بعض النماذج أو الأمثلة -حسب تصوّرنا - أو حسب تصوّرات باحثين لسانيين آخرين، وهي النماذج التي من خلالها نسعى إلى الإشارة إلى وجود الملمح العقلاني في التفكير اللغوي التراثي عند العرب قديما وذلك بهدف:

1- تأكيد القيمة العلمية للنظرية اللغوية العربية القديمة.

2- تثمين الجهود الحديثة التي فضلت في أعمالها وممارستها اللسانية العودة إلى التراث واستلهام مناهجه وقضاياه ومفاهيمه.

3- الاقتداء بالعقل اللّغوي التراثي وانتحاء سمته في التفكير والبحث والعمل من أجل نهضةٍ لسانيةٍ حديثةٍ في ثقافتنا العربية الرّاهنة.

ومن أجل توضيح هذه الجوانب ارتأينا أولا ان نتطرق إلى موضوع التفكير العقلاني ودوره في تأسيس المعرفة العلمية في العنصر الآتي:

2. التفكير العقلاني ودوره في تأسيس المعرفة العلمية

تشير المقاربة الأولى لموضوع المعرفة العلمية في ماهيتها وطبيعتها وشروطها إلى ارتباطها بملكة العقل وقدراته وأدواته وامكانياته في التصور والتشكيل، وكذا في الإبداع والتوليد والربط والإنتاج، بالإضافة إلى التخيّل والحدس والتنبؤ، وكذلك القياس والاستنباط والحكم والتجريد والإسقاط والتعميم، هذه العمليات وأخرى يمارسها العقل البشري بسلطة فوقية متحرّرة من كلّ تبعية أو قيود أو املاءات خارجية، والحاصل هو معرفة متعالية مثبتة ومطلقة -إلى حدّ ما -وعامة شاملة في صورة لا يمكن أن تكون محلّ دحض أو رفض أو تجاوز.

ومن هذا المنطلق يحتفي أهل العلم بأنفسهم وبمناصرته كذلك لأهل العقل أو العقلانيين الذين لا يتأخرون عن تأكيد دور العقل في حياة الإنسان؛ إذ بفضله ينوجد هذا الأخير حين يفكّر ويعي ويعرف بغية عقلنة الوجود بشكل منهجي ومضبوط، فالتفكير العقلاني بالنسبة لهؤلاء العقلانيين الذين ينزعون منزع أفلاطون هو "نضال لبلوغ الوقائع النهائية بممارسة العقل الخالص من دون عون من الحواس، والنتيجة هي بلوغ التبصّر للحقائق الأزلية المطلقة التي تتجاوز عالم العرض والحدوث". (كوتنغهام، 1997، صفحة 36)

وهو تفكير لا يفصل بين الحقيقة والعقل، فهي دليله وصورته، وبعبارة أخرى، يعد العقل سبيلا صادقا للكشف والتوليد والتأسيس والتنظيم، بل هو الوجود نفسه إذ يعي ويدرك فيبني ويخلق ويمنح المعنى للوجود، (العقل يوجد الوجود) ولا شيء يتحقق إلا بالعقل، وكما قيل: العقل يسري في الوجود، إنّه المكيال الذي يبدع الوجود، لأن العقل مقياس الأشياء. (الحدادي، 2014، صفحة 26)

والمعتقد الراسخ عند هؤلاء هو تكريس مثالية التفكير العقلي الذي يعلو على كلّ شيء، على الوجود بأكمله، في حدوده وعناصره وحقائقه وجوهره، فالعقل يخترق كلّ هذا المركب فهما ووصفا وتفسيرا وتشكيلا وتأويلا في صورة

منتظمة ومرتبة ذات أنساق وعلاقات تركيبية مجردة منتجة لمعرفة واضحة المعالم ومحددة المبادئ ومضبوطة السنن، وهنا يكمن ملمح التميز للمنزع العقلي في إدراك الأشياء والظواهر الوجودية الطبيعية.

وعامل التميّز كلّه نابع من فعل العقلنة المتحررة من كلّ سلطة خارجية سائدة أو متوقعة، فالعقل موجود الآن للتفكير والإبداع والإنتاج، لا للنقل وللاتباع والتقليد، فإنه بقدراته المتاحة طاقة كامنة تنفجر لحظة النشاط والحرية والممارسة والتبصر والتفسير وبالتالي في البناء والوضع والتأسيس المفاهيمي للمعارف والعلوم والمناهج.

إنّ عقلنة الأحداث والخبرات والوضعيات لا تحتاج إلى أنوار الآخر لإضاءة جوانبها وكشف أسرارها، بل تحتاج في الواقع إلى المحايثة الذاتية في التأمّل والفهم والتحليل والتفسير من خلال الاعتماد على إرادة العاقل ورغبته الطبيعية ونزعته الفطرية في كشف الحقائق وترصّدها ومعرفة أسبابها وأنظمتها، ومحاولة ثبت دلائلها ومسبباتها عن طريق التحليل والاستنباط والبرهان والقياس والتعميم، وهذا عينه جوهر التفكير العقلاني الذي يثق في الإنسان وقدراته فيرفع كلّ وصاية عليه، يبحث عن الحقيقة بلا سلطة تفرضها. (محمد، 2008، صفحة 05)

يُشترط في العمل العقلاني حسب هذا التصوّر القدرة على التفكير مع شرط الحرية، فلا يمكن للمرء أن يعرف إذا لم يفكّر ولا يمكن أن يفكر إذا لم يكن حرا، فإذا أراد وقرّر وتحرّر وفكّر عرف وفهم واستطاع أن يُنتج ويخلق ويُبدع، والنتيجة إذا أنّ العقل المتحرّر هو السبيل نحو المعرفة وهذا ما يؤكده الكثير من المفكرين ومنهم "جيمس وليم" الذي ربط بين العقل والحرية أو القدرة على الخلق من خلال إضافة شيء إلى جملة من الأشياء فالعقل –حسبه-قادر في حدود معينة أن يخلق التاريخ من خلال اختياره هو. (الكحلاني، 2003، صفحة 198)

تبدو هذه الفكرة منطقية إلى حدّ بعيد إذ تشير إلى طبيعة المعرفة العقلية وماهيتها، فهي معرفة صادقة ومتأصّلة واضحة وغير موجَّهة أو مقيّدة، فالعقل صاحب القرار وأداة الفهم والإبداع، وهو الوحيد القادر على هذه المهمّة المعقدة، ولذلك التزم العقلانيون بمبدأ ارتباط المعرفة بالعقل، ومنهم الفيلسوف "ديكارت" الذي يصرّح بأنّ الأجسام لا يتمّ إدراكها بدقة بواسطة الحواس بل بالعقل وحده. (كوتنغهام، 1997، صفحة 51)

ولطالما تحدّث "ديكارت" عن العقل والحرية والتفكير، ولا تزال مقولته المشهورة: أنا أفكر إذا أنا موجود، من أشهر ما قيل في هذا المعنى الذي يعدّ من صميم التفكير العقلاني من حيث جعل المعنى مملكة مركبة متناسقة ومنتظمة يتحققان فقط بتحقق شرط الحرية. (لالاند، 1979، صفحة 07)

إن وصف العقل بالمملكة يُكسبها القوة والسلطة والقدرة غير المشروطة في القبض على الأشياء في كلّياتها وجزئياتها ثم القدرة على الوصف والتحليل والتفسير لجملة العلاقات بين الأجزاء ومن ثم القدرة على إدراك الأسباب وربطها بالنتائج فلا وجود لشيء بلا سبب حسب العقلانيين ولا وجود لشيء غير معقول.

إنّ السؤال الذي يطرح نفسه هنا: ما قيمة هذه الأفكار في التأسيس العلمي؟ بمعنى ما أهمية توفر شرط التفكير العقلاني المفعم بالحرية والإرادة في الإنتاج المعرفي؟

يقوم العلم على أســس ضــرورية وثابتة ولكنّه من ناحية أخرى يتأســس على ظواهر ومعطيات متغيرة ومســتجدة باستمرار تستدعي حركة الفكر الدائبة وتتطلب وتستقطب إليها أسئلة العقل وأدواته التحليلية التفسيرية غير المحدودة وغير المقيدة بضوابط ونواتج تساؤلات سائدة موروثة ومنقولة، ولولا هذا الشرط لما تحرّك العقل أصلا، وبعبارة أخرى: يموت العقل ويزول حينما يخضــع لقيود غيرية خارجية تحدّ من طاقته وقدراته وتضــيق من فضــائه وآفاقه، فتجعله فضاء للإسقاط والإذعان والتقليد والاعتقاد السلبي وكذا النقل القسري.

إنّ حرّية الفكر هي ســبيل توليد الأفكار وخلقها وتطويرها، وبالتالي ســبيل لتأســيس المفاهيم والنظريات والعلوم، وهذا ما نادت به العقلانية التي أكدت على أنّ عقلانية المرء لا تكون بالتزامه بأفكار ثابتة واتباعه لإجراءات نمطية أو مفاهيم لا تقبل التغيير وإنما تكون بقدرته على تغيير تلك الأفكار والإجراءات والمفاهيم. (محمد، 2008، صفحة 59)

فالحياة مســتمرة ومتغيرة ومتحوّلة، وهو المعطى الطبيعي لاشــتغال العقل الذي لا يؤمن بالنهاية والثبات عبر الزمن المليء بالمشكلات والظواهر التي تحتاج إلى النّظر المحايث والتأمّل المباشر على الدوام.

قد لا يتفق الجميع مع هذا المذهب في التفكير، لكنه من الناحية المنطقية غير قابل للدحض والنكران بالجملة، فالعالم متحرّك بطبعه، وتوازيه في ذلك حركية في العقل والعلم والمعرفة، من أجل ذلك قيل عن العلم حســب "ســتيفن تولمان" بأنّه: حركة دائبة نابعة من حيوية الإنسان الذي أبدعه وأوجده.

ومن جهتنا نحن نشــعر بوجاهة هذا الطرح، ونشــعر بأهمية هذا الأمر ودوره في عملية الإيقاظ والتحفيز لدور الإنســان في الحياة بعدّه مركز الكون وبعدّه مُوجد وخالق للمعنى الســائد في الوجود، وهذا يُعطي له الأمل في كلّ حين من أجل أن يفكر ويُنتج ويُولّد لنفســه ولغيره حياةً جديدة من خلال بناء عوالم جديدة من المفاهيم والتصــورات والنظريات والمناهج بدلا من الضياع في عوالم غيره وفكرهم وقيمهم ومواقفهم الخاصة.

وهكذا تتحدد مهمّة الانسان العقلاني بشكل مستمر في صياغة الأفكار والقوانين وكذا الاستعداد المستمر للتكيّف والمســايرة مع المواقف الجديدة بعقل منفتح (غير منغلق)، والأمر الضــروري هنا هو التركيز على تفكيره وقدراته وعلى ما هو قادر على صنعه بدلا من التركيز على أفكار أخرى.

من خلال هذا المفهوم نؤكد على ثبات العلاقة بين العقل والحرية والإرادة، وبين التفكير والعمل والعلم والابداع، وما أحوجنا إلى هذا في حياتنا الراهنة التي تستدعي وتتطلب إعادة إحياء أدوار العقول الناشطة من أجل التأسيس والتطوير في مجال المعارف والبحوث العلمية، وهو الفضاء الذي تترسخ فيه صفة العلمية والتي بدورها تتأسس على فكرة النظام المجرد وهو النظام الذي فُكِّر فيه تفكيرا عقليا. (أرسلان، 2016، صفحة 86)

والأمر الواضــح هنا –فيما يخص هذا الطرح – هو مركزية التفكير العقلاني في التأســيس العلمي إذ يُعدّ الوســيلة الوحيدة لتوليد المفاهيم وإنتاجها بصــفة معقولة غير منقولة، وهو المســار الذي يبعد العقل عن إغراءات فكر الآخر ودفعه إياه إلى النقل والأخذ والتطبيق الســلبي، وخلال هذا المنحى يكتســب المصــداقية العلمية، والأحقية في الوجود،

ومظهر ذلك تحقيق الصـــمود –عبر الزمن-أمام المســـاءلات العقلية والإســـقاطات الفكرية التي تحاول المقارنة والنقد والتفكيك والتأويل.

وضـــمن هذا الســـياق نفترض عقلانية التفكير لدى علماء اللغة العربية قديما في تنظيرهم وجهودهم اللغوية، إذ أوجدوا لفكرهم وبحثوهم مسوغا للدراسة والبحث من أجل الاستنطاق والكشف ومدار السؤال هاهنا:

ما مدى حضور التفكير العقلاني في التراث اللغوي العربي؟

3. ملامح التفكير العقلاني في التراث اللغوي العربي-نماذج مختارة-

أشـرنا فيما عرضـناه سـابقا إلى تلك العلاقة المؤكدة بين التفكير العقلاني ومبدأ الحرية وعامل الإرادة والتأسـيس العلمي حيث تشـكيل المفاهيم وبناؤها وتنظيمها وتجريدها، وهي الجوانب التي نسـعى في هذا الموضـع إلى كشـفها أو توضـيحها في الجهود اللغوية العربية قديما من خلال نماذج أو إشـارات نموذجية مختارة لموضـوعات وقضـايا لغوية ومفاهيم معرفية وضـعها وأنتجها العقل العربي في لحظة تأملية واعية كشـفية وتحليلية للغة العربية في خصـائصـها الشـكلية والدلالية فاســتطاع بذلك أن يبني لذاته وجودا قارا اســتمر وجوده وأثره إلى يومنا هذا منافســا ومضــاهيا في معارفه ومناهجه ما توصل إليه علم اللسان الحديث بعد تأسيسه وتطوّره وذلك بفضل الرؤى العلمية العقلية التي تبناها أو انتهجها.

وفي إطار تناولنا لهذه الإشــكالية –إشــكالية المنزع العقلاني في التفكير اللغوي التراثي عند العرب-نشــير إلى بعض القضايا أو المفاهيم التي نراها حسب اعتقادنا دليلا أو ملمحا من ملامح وجود العقلانية في الممارسات اللغوية عند علماء اللغة العربية قديما.

ومن أهمّ ما أثار اهتمامنا في هذا السياق ما تناوله "ابن خلدون" في مقدمته من قضايا ومسائل تنمّ عن حضور المنزع العقلاني في فكره اللغوي حول موضـوع اللغة وعلومها وكذا كيفية اكتسـابها وطرق تعلّمها، ومن أبرز ما اسـتوقفنا في هذا المقام نذكر ما أورده عن " اللغة" ووصــفه لها بالملكة، هذا المصــطلح الذي يحوي في عمقه مفهوما يجســد ارتباط اللغة بالعقل، وبكون اللغة نشاطا ذهنيا يتمثل صوريا في قوالب ونماذج موجودة في دماغ الإنسان العاقل الذي يولد وهو مزوّد بميكانيزمات داخلية تسمح له باكتساب اللغات وتعلّمها بصرف النظر عن طبيعة المدخل اللغوي الذي يتعرض له، فهو شــيء ظاهري وعارض، في حين يتمثل الجانب الجوهري للغة في تلك القدرة الباطنية أو الطاقة الكامنة التي تتفاعل بعلاقات نظامية ونســقية من أجل إحداث عمليات ذهنية مجردة في صــورة الإســقاط، الربط، الاســتنتاج، الفهم، التحويل، البناء، التوزيع، التشــكيل، التعميم، التخزين، التخييل، التأويل، التذكر...إلى غيره من ذلك من نواتج المكون الفطري ومظاهره.

ومن هذه الزاوية نظر "ابن خلدون" نظرة علمية عقلانية، قدّم من خلالها تفســيرا لطبيعة اللغة إذ وصــفها بالملكة الحاصــلة في النفس، تُصــقل وتتطوّر بالتدرج بفعل الاكتســاب والتعلّم والممارســة، وهو ما يحدث بالســماع والحفظ والتكرار، في بيئة تتحكم فيها شـروط وقوانين ومبادئ، والتي نظر فيها -بعد ذلك -أهل اللغة أو علمائها وتمثلوها في مسـردٍ وصفي تحليلي وبأدوات علمية كان أساسها التجريد والوضع والقياس والتعميم.

وعن هذا كله تحدث "ابن خلدون" في مواضع مختلفة في مقدمته، وهو ما نحاول ذكره بتلخيص –بالنظر إلى محدودية الفضاء والمناسبة-ومن أبرز ما ذكره: (خلدون، 2004، الصفحات 680-730)

- اللغات كلّها ملكات في اللسان تحصل بتكرار الأفعال واستمرارها إلى أن تكون صفة راسخة في النفس.

- ملكة هذا اللسان غير صناعة العربية، فالصناعة معرفة بقوانين الملكة، ومقاييسها (علم بكيفية، لا نفس كيفية، فليست نفس الملكة) والملكة هي غير صناعة العربية، والملكة إنما تحصل بالممارسة واعتماد السمع المتكرر والتفطن لخواص تركيبة ولا تحصل بمعرفة القوانين العملية التي استنبطها أهل صناعة البيان، فهي قوانين تفيد العلم بذلك اللسان، ولا تفيد حصول الملكة في محلّها.

- أصبحت صناعية العربية عند غير العرب (أهل المغرب وافريقيا) علما يبحث في جملة قوانين المنطق العقلية والجدل، ولاحقا تحوّلت تلك القوانين إلى وسائل للتعليم.

- في حديثه عن العلم يشير إلى كونه : إمآ تصوّرا للماهيات ،إما تصديقا ؛أي حُكما بثبوت أمر لأمر، فصار سعي الفكر في تحصيل المطلوبات إمّا بأن تجمع تلك الكليات بعضها إلى بعض على جهة التأليف، فتتحصل صورة في الذهن كلية منطقية على أفراد في الخارج، فتكون تلك الصورة الذهنية مقيّدة لمعرفة ماهية تلك الاشخاص.

- موطن العلوم وخزانتها النفس الإنسانية الفطرية، بما تتسم به من إدراك، وتفكير وتصوّر للحقائق ثم بيانها لغويا (بالكلام) أو بالكتابة.

- إنّ الفكر الإنساني طبيعة مخصوصة فطرها الله كما فطر سائر مبتدعاته، وهو (وجدان حركة للنفس) في البطن الأوسط من الدماغ، (وفيه تحدث عمليات التنظيم، الترتيب، الربط، النفي، الاثبات، البحث والاستكشاف...)، وهذا شأن هذه الطبيعة الفكرية التي تميز بها البشر عن الحيوانات.

- في علم النحو يذهب إلى ارتباط نشأته بصون اللغة العربية من اللحن بعد ابتعاد الملكة اللغوية عند العجم عن الصواب ،وبذلك عمد أهل العربية إلى استنباط من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة المطردة، شبه الكليات والقواعد، يقيسون عليها سائر أنواع الكلام ويلحقون الأشباه منها بالأشباه وهو المسمى بالقياس الذي يستند إلى أحكام العقل ،ويضيف شارحا له (القياس) في موضع الحديث عن معرفة قوانين البلاغة حيث يقول عنها أنها قواعد علمية قياسية تفيد جواز استعمال التراكيب على هيأتها الخاصة بالقياس وهو قياس علمي صحيح مطرد كما هو قياس القوانين الإعرابية.

- وتفصيلا لهذا المنهج يضيف قائلا: القوانين العلمية من الإعراب أو البيان لا يفيد تعليمه بوجه إلا بقدر مطابقة القوالب المستعملة في كلام العرب (الشعر أو النثر)، وكلّ شيء إنّما يحدث ويندرج على شكل صورة ذهنية تحت تلك القوانين القياسية التي تصير كالقوالب (الموجودة في الذهن) والتي تكون في الشعر أو النثر.

من خلال هذه الآراء وأخرى "لابن خلدون" تبدو لنا ملامح المنزع العقلاني في تصوّراته الفكرية بصفة عامة وتصوّراته في اللغة وعلومها بشكل خاص، وهو الأمر الذي جعل الكثير من الباحثين يقاربون أفكاره بأفكار بعض اللسانيين المحدثين ومن ذلك نذكر حديثه عن الملكة اللسانية حين أشار إلى خاصية الفطرية فيها ؛إي هي هبة من الله (موجودة سلفا) زرعها في عقل الإنسان (مكوّن طبيعي/أحيائي موجود في الدماغ) على شكل قوالب كلية مهيأة للنمذجة والتشكيل والارتسام اللغوي المتباين في المظهر بعد الاكتساب والتعلم والممارسة، وهي الجوانب التي تحدث عنها "نوم تشومسكي" الذي يرى بدوره أنّ : "كل البشر يولدون ولديهم معرفة فطرية بالمبادئ التي يسميها القواعد الشاملة لا ترتبط بملامح اللغة النحوية السطحية". (كوتنغهام، 1997، صفحة 30)

وفق هذا الطرح يشترك بنو البشر في هذه الخاصية، وهذا يعني اشتراكهم في أمور أخرى (كلّيات) من مثل: القدرة على الفهم، الإدراك، التأويل، التخيّل، الذكاء، التصوّر، الإسقاط، القياس...إلخ، وهي كلّها عمليات يتحرّر الإنسان بها من إملاءات الخبرات التجريبية الخارجية ومن قيود العالم الخارجي، وهذا ما يؤمن به الاتجاه السلوكي في تفسيره لسيرورة الملكة اللسانية تشكيلا واكتسابا وتعلّما، والحقيقة هنا أن آراء "تشومسكي" تمتد جذورها إلى تصوّرات العقلانيين القدماء وفي مقدمتهم "ديكارت"، حيث تأثر بفكرهم وتأويلهم للجواهر ولمصدر المعرفة ولحصرهم لها في المكوّن العقلي الذي توجده الطبيعة، وناتج هذا التأثر جعل "تشومسكي" يتمسك بفكرة التفسير الفطري الجيني الأولي لدى الإنسان الذي يمتلك قواعد كلّية داخلية وهي –كما يوضح- ميزة بارزة للحالة الأولية ما قبل اللغوية للطفل ثم يأتي دور الخبرة بتثبيت أطر القواعد الكلية من خلال تقديم القواعد الجوهر. (السبيعي، 2015، صفحة 182)

والمعنى المقصود هنا هو :أنّ الثابت في موضوع اللغة هو مكوّن مشترك عند بني الإنسان، والمتغيّر الهامشي والسطحي والعارض هو المدخل اللغوي الذي لا اعتبار له إلاّ بقدر تمييزه الوظيفي للأبجديات التواصلية والإبداعية، في بيئات لغوية متباينة، وعليه يمثل المكوّن الجيني في اللغة الحالة الأولية الفطرية البيولوجية الداخلية والتي تتضمن قوالب ترتسم فيها وفق قواعد كلية وعامة، وهكذا تصوّرها "ابن خلدون" الذي أكد أنّ الملكة اللسانية تتميز بقوالب مجردة من الخيال، وتجرد هذه القوالب الكلية عن طريق العقل باعتبارها صورا من بنى لغوية معينة في مدخل اللغة. (السبيعي، 2015، صفحة 215)

ليس من الصعب قبول هذه الفرضيات أو رفضها وإنما الأصعب هنا هو البحث عن إجابات منطقية لجملة من الإشكالات المرتبطة بهذا السياق المفاهيمي ولعلّ أبرزها:

- كيف تمكّن "ابن خلدون" من صياغة فرضيته هذه؟ وكيف توصّل إلى إدراك وكشف حقائق علمية عن اللغة وطبيعتها وجوهرها الثابت ومتطلبات اكتسابها وتعلّمها؟

وفي حال التصديق بهذه الفرضية المطروحة منذ القدم إلى يومنا هذا: لماذا يختلف البشر في التفكير والفهم والتأويل ومستوى الذكاء والقدرة على الإنتاج والإبداع والتكيّف؟ ولماذا لا يحصل بينهم اتفاق جماعيّ حول بعض الأمور والمسلّمات والتصورات التي من المفروض –تبدو مفاهيم إنسانية عامّة، كمفهوم الحرية والعدل والمساواة والتوحيد

والايمان والعمل...إلخ؟ أم أنّ: لعامل البيئة والعالم الخارجي بكل عناصره ومنها المداخيل اللغوية –بما تحمله من مضامين وسياقات ثقافية ودينية وتاريخية ومعرفية وإيديولوجية وفلسفية-دور حاسم في توجيه التلقي والفهم والعمل والممارسة وهي الفرضية التي تمسك بها السلوكيون والتجريبيون؟

- أما الإشكالية الأخرى: في حالة تعرّض الطفل لأكثر من مدخل لغويّ في الوقت نفسه فأي منها يرتسم وينمذج في القالب الكلي الموجود في الدماغ؟ وهل تؤثر هذه التعددية (سلبا أم إيجابا) على مستوى التفكير وشكله وممارسته؟

وتجاوزا لهذه الإشكاليات التي تحتاج إلى مطرح آخر مستقل لمعالجتها، نواصل ما أخذناه موضوعا لبحثنا هذا، لنعرض إلى ملامح أخرى من ملامح التفكير العقلاني في التراث اللغوي العربي، فبعد طرح فكرة موضوع اللغة وطبيعتها، يكثر الحديث في الآونة الاخيرة عن الفكر اللغوي القديم ذاته، خاصة ما تعلّق بمسألة المنهج والأدوات التي اعتمد عليها علماء العربية في نظرهم (بحثهم) اللغوي.

لم يفت "ابن خلدون" هذا الأمر حيث تحدّث عن طبيعة العلوم والتي جعل منها تفكيرا علميا إنسانيا مرتبطا بالعقل الفكري المفطور في الإنسان القادر على إجراء عمليات ذهنية على خلاف سائر الحيوانات، ليتحدّث بعد هذا عن بعض أقسام العلوم ومنها: علم البلاغة، البيان، المنطق، النحو...وكلّها علوم تستند إلى عمليات التأمّل الفكري والتجريد والقياس فعن علم النحو مثلا: يؤكد -أولا -ارتباطه بالغاية التداولية آنذاك وهي الحفاظ على لغة القرآن خاصة بعد الاختلاط بالعجم وتفشي اللحن.

كما يؤكد -ثانيا -تميّزه بالملمح العقلاني في وضعه، إذ قام علماء العربية آنذاك على استقراء المدونة اللغوية العربية ثم عمدوا على استنباط قوانينها وخصائصها وعبّروا عنها بالتجريد والقياس والتعميم، وهي كلّها أدوات علمية توحي بحضور التفكير العقلاني في التعاطي مع اللغة العربية.

والسؤال المطروح هنا: ما دور النص القرآني في هذا الأمر؟ وبعبارة أخرى كيف ساعد القرآن على تحريك العقل العربي ودفعه إلى الاشتغال والإبداع؟

إنّ الفرضية المطروحة هنا هي: أنّ النّص القرآني يتضمن في ذاته أدوات فكرية وسياقات معرفية تدعو إلى التفكير والاستبطان والتأمل في المخفي (الماورائي) والتأويل وكشف المقاصد والتفسير والتحليل، وهذا كله عمل عقلي لا يقدر عليه إلا أولوا الالباب.

والحاصل هنا: إنتاج نظرية لغوية علمية ساهمت ولا تزال في تغيير نمط التفكير والفهم والتواصل؛ ومن مظاهر هذا كلّه: نشير على سبيل المثال وليس الحصر إلى ما قام به الخليل الذي أبدع في استقراء النماذج النظمية العربية فأبدع في استنباط التفعيلات ووضع البحور الشعرية، ومن جهة أخرى أبدع سيبويه في العمل التجريدي والاستقراء العلمي من أجل استنباط قوانين اللغة العربية في مستوياتها المختلفة (الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية)، فقد تمكن بفضل الرؤية العلمية والتأمل العقلاني من طرح موضوعات علمية من مثل: العلة ونظرية العامل ونظرية القياس،

والأمر المؤكد هنا هو أن سيبويه وغيره آمنوا مبكرا بأنّه "لا وجود شيء في التجربة إلا وهو مفوض من شيء آخر". (لالاند، 1979، صفحة 37)

وهي حجة إعمال العقل في الحياة (فكرا وعملا)، وهذا عينه مطلب العقلانيين الذين يصـرّون على ضـرورة التحلّي بروح الحركية والحرية للعقل الذي عليه أن يبحث ويسـأل ويكتشـف ويفترض ويتوقع بالحدث ويثبت بالتفكير المنطقي ظواهر الوجود وصوره وقوانينه، فهناك دوما سببا خفيا وعلّة مستورة على العقل الوصول إلى كشف عوالمها "فالعلة من وجهة النظر الفلسـفية هي حاصـل الجمع التام لجميع الشـروط الإيجابية والسـلبية في جملتها ومجموع الظروف من كلّ نوع التي متى حدثت تلتها النتيجة بإطراد". (لالاند، 1979، صفحة 40)

وعملا بهذا الإجراء أُسـتنبطت قواعد اللغة العربية، فعُرِفت علّة النصـب والرفع والجر، وكذا كُشـفت أسـباب التقديم والتأخير، التعريف والتنكير، وخلال ذلك وُضعت نظرية العامل في اللغة التي منبعها الوحيد التفكير العقلي.

وإن كان لا بد من تأكيد عقلانية التراث اللغوي العربي، فإنه من المفيد هنا الإشارة إلى طبيعة القياس المعتمد فيه والذي كان علميا عقلانيا مختلفا عن القياس المنطقي الأرسـطي اليوناني، وهذا ما أثبته المحدثون في قراءتهم للتراث ووصـفهم لمناهجه، وفي مقدمتهم الباحث "عبد الرحمان الحاج صالح" الذي أكدّ مرار على علمية التراث اللغوي العربي.

والفكرة المتفق عليها عند الكثير من اللسـانيين المحدثين هي كون القياس النحوي العربي –قديما- قياسـا رياضـيا وظيفته "اختبارا الواقع ثم تفحصـه ثم تطويره، ينتقل من مقدمات مركبة ومبادئ عامة إلى نتائج بسـيطة (البرهان التحليلي) ومن مقدمات بسـيطة إلى نتائج مركبة (البرهان التركيبي) ونتائجه جديدة غير متضـمنة في مقدّماته." (جعفر، 2022، صفحة 92)

وكان الفضل الكبير لحضور هذا المنزع العقلاني في البحث اللغوي العربي قديما هو وضع نظرية لغوية عامة وشاملة قوامها اسـتقراء القوانين وتجريدها وتعميمها ثم اسـتعمالها في الوصـف والتحليل، وكذا في التعلم والتعليم لاحقا، وخير ما نختم به هذا الطرح حول حضـور المنزع العقلاني في التفكير اللغوي العربي، هو ما قاله "الفارابي" واصـفا علم اللسـان في كتابه إحصـاء العلوم، حيث يقول: "علم اللسـان في الجملة ضـربان: أحدهما حفظ الألفاظ الدالة عند أمة ما، وعلم ما يدل عليه شيء منها، والثاني علم قوانين تلك الألفاظ، والقوانين في كل صـناعة أقاويل كلية أي جامعة ينحصـر في كل واحد منها أشياء كثيرة ممّا تشتمل عليه تلك الصناعة وحدها". (الفارابي، 1949، صفحة 45)

وإننا لنراه من أهمّ النصـوص التراثية التي وصـلتنا، بما نقله من ماهية علم اللسـان عند العرب، وموضـوعه وأقسـامه من جهة، وكذا من حيث تحديد سـماته وخصـائصـه (الكلية والعامة) إلى جانب أفضـلية وضـع مصطلح "علم اللسان" وهو المصطلح المتداول حاليا والدال على الدراسة العلمية والموضوعية للسان البشري، ولئن كان موضوع الدراسـة العلمية هو اسـتقراء الظواهر الطبيعية وتحليلها وتجريد قوانينها في صورة عامة وكلية، فإنّ ما تضمنه قول "الفارابي" لأكبر دليل على حضور المنزع العلمي العقلاني عند علماء العربية قديما.

4. خاتمة

في ختام تناولنا لهذا الموضـــوع، لا نملك إلا أن نؤكد على أهمية التفكير العقلاني ودوره في تأســيس العلوم، وذلك بإعمال العقل ودفعه إلى التأمل والتساؤل والبحث والكشف، وبالتالي السعي نحو التخلّص من إكراهات الآخر وإملاءاته، ومن ثقل المنقول ومشـــروعيته وقدســـيته، وما يدل على حتمية هذا الأمر هو علمية التراث اللغوي الذي تمكن رواده بتفكيرهم العقلاني ونظرهم العلمي من تأسيس فعلي لنظريةٍ لغويةٍ عربيةٍ مستقلةٍ كان وقعها عظيما وممتدا عبر التاريخ. ولعل المطلوب من الباحثين المحدثين اليوم هو الاقتداء بهم، أي التحرر من المنقول والاعتماد على العقل لمقاربة الإشـــكالات الرّاهنة المطروحة أو المتوقعة من أجل نهضـــةٍ فكريةٍ حقيقيةٍ في مختلف المجالات وفي مجال البحث العلمي تحديدا.

وقد يكون أبرز ما نقترحه بعد ما توصـــلنا إلى إبراز أهمية التفكير العقلاني ودوره في علمنة البحوث الفكرية والنظريات والتصـــوّرات وبالتالي تأســـيس العلوم وتطويرها هو إعادة النظر في المناهج التربوية في جميع الأطوار وفقا لما يخدم بناء العقل وتحفيزه على الاشـــتغال والتفكير والإبداع والإنتاج والممارســـة، وهو ما يتطلب بالتأكيد إعادة النظر في أهداف التدريس وطرائقه ومضامينه وأطره العامة والخاصة.

5. قائمة المراجع:

1- جون كوتنغهام، (1997)، العقلانية، الفلســـفة المتجددة، تر: محمود منقذ الهاشـــمي، ط1، حلب، مركز الانتماء الحضاري،.

2- عزيز الحدادي، (2014)، أزمة الفكر العربي وأسئلة الميتافيزيقيا، د ط، المغرب،.افريقيا الشرق

3- محمود محمد علي محمد، (2008)، مفهوم العقلانية عند ستيفن تولمن، مطبعة محسن سوهاج.

4 - حســـن محمد الكحلاني، (2003)، فلســـفة التقدم، دراســـة في اتجاهات التقدم والقوى الفاعلة في التاريخ، د ط، مكتبة مدبولي.

5 - أندريه لا لاند، (1979)، العقل والمعايير، تر: نظمي لوقار، د ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب،.

6- زكرياء ارسلان، (2016)، ابستيمولوجيا اللغة النحوية، بحث في مقاييس العلمية مرجعيات التأسيس والتأصيل، ط1، المغرب،دار كنوز للمعرفة

7 - عبد الرحمان بن خلدون، (2004)، مقدمة ابن خلدون، تح: حامد أحمد الطاهر، ط1، القاهرة، مصر، دار الفجر للتراث،

8 - سعدون بن حميد السبيعي، (2015)، أبحاث في نظرية اللغة ، ط،1،بيروت، لبنان، منشورات ضفاف.

9 - مشتاق قاسم جعفر، (2022)، اللسانيات الرياضية، الأبعاد والمظاهر والمحاولات، ط1، عمان، الأردن، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع.

10- جماعة إحياء الفلسفة، (1949)، إحصاء العلوم للفارابي، تحقيق وتقديم: عثمان أمين، ط2، دار الفكر العربي، مطبعة الاعتماد بمصر.